رسالــة العلامة نشوان بن سعيد الحميري من مدينة تريم

هـذه رساله هزلية ساخرة كتبها علامه اليمن اللغوى المحقق نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة 573هـ وبعثها وهو بمدينة تريم إلى صديقه سلطان حضرموت عبد الله بن راشد بن شجنعة، وكان نشوانٍ الحميري قد رحل إلى حضرموت لعَله للتّخفيف عن نفسه مما يكابده من خصومه الأشراف العلويين الذين ناصبوه العداء وقويت شوكتهم في بلده حوث ونواحيها من بلاد حاشد، فكانت بينهم المشاعرة باللسان وأحيانا بالسيف ولولا أنه لقي جماعة من أنصاره من بني جلدته لكان من الهالكين.

عبد الله محمد الحبشي

فكانت رحلته إلى حضرموت للتنفيس عن نفسه، وفيها جماعة من أهله الذين ينتسبون إلى حمير وقحطان وقد شاركوه النسب والمذهب. كما يقول، فدل هذا على أن أهل حضرموت كانوا يعتقدون المذهب السني وإن كانوا في العقائد ربما قد أخذوا بالمذهب الاعتزالي، الذي كان اعتقاد غالبية أباضية حضرموت فى ذلك الوقت. وكما تبينه كتب نشوان بن سعيد الحميري نفسه، وقد ألف في ذلك كتبا لاتزال في طي الإهمال ومن أهمها كتاب ضخم في تفسير القرآن بعنوان((التبيان في تفسير القرآن)) يوجد بمكتبة برلين برقم 916، 917، 918 لاادري كيف لم ينتبه له الباحثون وهو مهم جدا في معرفة معتقد نشوان الحميري.

وكانت صنعاء حتى القرن الخامس مقردار أهل السنة كما يبين ذلك كتابا: تاريخ صنعاء للرازي المتوفى سنة 460هـ وتاريخ صنعاء ولابن جرير الصنعاني المتوفى سنة 450هـ ، والذى قمنا بنشره سنة 1990م، وكانت مساجد صنعاء أكثرها لأهل السنة كما ذكر ذلك ابن جرير السابق ذكره وقد قال ابن سمرة الجعدي المتوفى سنة 586هـ : ((إن أهل اليمن إما حنفي وهو الغالب وإما مالكي)) وذلك قبل انتشار مذهب الشافعى في الفروع ومذهب أحمد بن حنبل فى العقائد.

وفى رحلة نشوان الحميري الى حضرموت ربما حمل معه الكتب والمراجع فحدث له أن ضاعت هذه الكتب، فكتب هذه الرسالة الهزلية إلى صديقه السلطان عبد الله بن راشد بن شجيعة ينعي فيها كتبه ويتحسر عليها وقد ظلت هذه الرسالة مفقودة حتى وقفت عليها ضمن مجموعة جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام لمعاصره أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزري الذي جاء الى اليمن مع ملوك الدولة الايوبية من الشام، والف

كتابه هذا لصلاح الدين الأيوبي وبقى مخطوطا في المانيا حتى قام بنشره تصويرا الاستاذ فؤاد سزكين ضمن مجموعته المصورة واعاد تحقيقه الأستاذ محمد ابراهيم حور وطبع في أبو ظبى سنه 2005هـ

نص الرسالة

لو استعرت السنة الفصحاء ، واستعنت علي ذلك بالاخلاء النصحاء، وكان لي اللوح لوحا وصحيفة، والبحر مداداً والشجر أقلاماً نحيفة ، وعززت بكل حمامة ذات طوق، بوصف ماأضمر من الشوق، لأتيت من ذلك بالمختصر، وكنت كباقل في العَيّ والحصر، فحرس الله تعالى عزّ السلطان الأجل محمود الأفعال والسير، عن نوائب الدهروالغير، حتى تعرب((الحروف))[1] المسكنة، وتبنى ((الأسماء)) المتمكنة، وتدغم الهمزة في اللام، ويعمل((الجازم)) في الأسماء والأعلام ، وأدام علوه دوام حركة البناء في الفعل الواجب ومالم يتمكن من الأسماء ، فتلك حراسة لاتبيد، ودوام على ممّر الأيّام جديد، ورفع قدره مالرتفع كل(فاعل)، و(مبتدا) معرًى عن (العوامل) وسَلَّمه من نوائب الدهر والغوائل،سلامة((الضرب)) [2] الأول من (الطويل) والنوع الأول من (الكامل) وجزأكل عدوّ له ومحارب، تجزئة رابع (الخفيف) وخامس(المتقارب)،ودهاه بالخطب الشديد، وقيده بقيد ثاني«المديد»، بل حذفه حذف نون الجمع عن «الإضافة» في الكلام، والتوين بدخول الألف واللام، أو ألف الوصل في اللفظ دون الخط، وخفض درجته من الصعود الى الخط ،وهذا دعاء لو سكت كفيته لأني سألت الله فيه وقد فعل، وخصّ حضرته بسلام مشتق من الإسلام، ان قيس بالطيب فهو أقرب نصيب، أو نسب إليه الجوهر فهو أشرف وأبهر، أونسب إلى الرياض ، متفرعة الأنهار والحياض، فهو أطيب منها نَسِيْماً واحسن من ازهارها قِيَماً :

سلام لو تجسم كان مسكا
وياقوتا ذكيّا في الكتاب
كأن العنبر العدني فيه
وفأر المسك مقصوص الرضاب

سلام أصحاب اليمين، إذا قيل لهم ادخلوها بسلام آمنين . ((ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين)) . صدر عن أخ في الدين والمذهب وشقيق في الأدب ،وابن عم في النسب، رمت به (365) يد الفراق ، الى مَدى صعب المراق ،إن قدم ندم وان رجع، بَعُدَ عنه المرتجع، لإعياء الدواب عن الذهاب ،وبُعْدُها عن الاياب. فسكن على مجاز، وأقام على أوفاز. يشيمُ برق الخُلّب[3]، ويهيم بغير هاو وقلب. وكان كذي النون اذ ذهب مغاضبا وهو كظيم، فالتقمه الحوت وهو مليم، ونادى في ظلمات البر نداء يونس في ظلمات البحر: أن لاإله الا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ونداء أيوب: أني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين.

إلاّ أن حوت يونس لم يكن من المتعدِّين، وحوتنا هذا من+ أئمة الدين ، فليت شعري أيخرج من التقمه هذا الحوت ،فإنه من الغواة القاسطين، وينبت عليه شجرة من يقطين ، أم يلبث في بطنه الى يوم يبعثون. غاضبت إلى بلاد السنة، فعثرت عن أهلها على الظِنَّه ، وماتقيت من سهامهم بجُنَّة. اقتطعوا من دفاتري عدة إخوة الصُدّيق[4]، فهي إلى الآن معهم عند فريق . فياليت شعرى أرى فيها مثل رؤيا يوسف، أم لا أري الا الكمد والتأسف. وهل أرى أحد عشر كوكبا لي ساجدة ، فتصبح دفاتري لي عائدة ، ام تمتنع من السجود ، فتتعذر علي بالوجود . فالكواكب من النجوم نظاير كتب العلوم.

النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، والكتب يهتدى بها في ظلمات الجهل، وفي كل

(1) - من هنا تبتدي التورية بمصطلحات النحاة

(2) - هنا مصطلحات أهل العروض .

(3) - برق خُلَّب: السحاب والبرق لامطرفيه .

(4) - يعني يوسف: أحد عشر كوكبا

أمرنا معلَّم جودان ، شمرت للخيانة الأردان. يامحمد بن عواض، ليغن الله عن كل سارق لم تَبتْ عنه راض، كنت إليك من الراكنين، ولك من الآمنين، فخنت، والله لايهدي كيد الخائنين. خنت رفيق الجنب، فأنت مثقل الذنب. سرقت الوديعة، وأظهرت الخديعة. استخلفتك على الكتب، فكنت خليفة غير منتخب. وأتيت لي في خلافك بالعجب، وفتنت أقواما من الطغام بها، وازددت شرفاً عندهم بسببها، فخدعتهم بالريب، وادعيت عندهم علم الغيب، وأريتهم فيها خطوط المساحات، مربعاتها والمثلثات، ودوائر العروض، ومافى الشعر من مسنون ومفروض. وقلت: فهمت مالا تفهمون، وعلمت مالا تعلمون، في هذا علم ماكان وماسيكون ، وماتأتون وماتتركون، وأدركت من ذلك مالاتدركون. حتى آمن بك واتبعك إمام عندل[1]، اتِّباع الفصيل للعَنْدل.[2] ففتنتهم كما فتن السامريُ بالعجل قوم موسى، واتخذه للكفر ناموسا، فعبده قومه وعكفوا عليه، وأخذ براس أخيه يجره إليه.

فليت شعرى بأي رأس أجر، ومن ينفع منك أو يضر. قبض السامري قبضة من أثر الرسول، وقبضت من أثري قبضة من غرضك والسول، فغويت وأغويت، وأضللت وماهديت. لقيتنى في السفر جانحا، حسبتك للنصح مانحا، فكنت طيرا بارحا لاسانحا. ياشر الطيور، ليس بباز ولاعصفور، ولاساكن على القصور، لقد أحسن المتنبى وصفك، في قوله المشهور :

خير الطيور على القصور وشرها
ياوي الخراب ويسكن الناووسا

ضننتك هدهد سليمان الذي دلّ بلقيس وقومها على الإيمان، فقال: جئتك من سبأ بنبأ يقين، فكان من الصادقين. فأخلف فيك الظن، وعملت ذوفن، وصح أنك غراب النابغة الأسود، ونازحه الأنكد. بغير شك يامحمد ،الذي يقول فيه النابغة

زعم النوازح أن رحلتنا غدا
وبذاك خبرني الغراب الأسود

ياسارق الأسفار، إنك من الكفار. إقرا سورة الجمعة اذا صليت بالجماعة، وسورة النور، فقراءتهما من الطاعة(366). فأنت في بلد السنة إمام، وسرق الدفاتر في مذهبك للإمامة تَمَام. ومن هذه الكتب مع إمام عندل كتاب، أرجو ان يتوب ومآن له متاب، اذا طلبت منه الأداء، طلب منى الفداء. واذا خوف بالحرام، نسب مخوِّفه الى الغرام. أو روي له قول الرسول «المؤمنون وقافون عند الشبهات»[3]، مد يده وقال: ان أردت الكتاب فهات؛ فسلمت من خُرّاب الأعراب، ولم أسلم من ائمة المحراب. كأن المعري نظر إلي وإليهم فنظم هذين البيتين فيهم :

في البدو خُرَّاب أذواد مسومة
وفي المساجد والأسواق خراب
فهولاء تسموا بالعدول أوالتجا
رواسم أولئك القوم أعراب

استغفر الله -عزوجل- مافي الدنيا من العجائب، لكل مقيم وجائب. كأن سيري من نفسى باختيارى، فوقعت من الشغل فى صِمَّي ضَمَّام، من إمام منهم بعد إمام، فوقفت انتظر رجوع الكتب، وتوبة خاطىء لم يتب، في مناخ جعجاع، لاأملك خيارا في إقالة ولاارتجاع، كأن امرأ القيس بن حجر الكندي، فيما ينشد من شعره في الندى حيث فاته الأمل ، فوقفت باكيا بين الدخول فحومل. وهيهات هيهات فات مافات ، وحالت دونه الآفات. لعل سائر الفقهاء، ينكرون من فعل السفهاء، ويشتركون في الصيد، ويتمثلون ببيت دريد :

ومأأنا الا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

(1) - عندل: بلدة تاريخية مشهورة، تقع في اعلى وادي دوعن بمنطقة حريضة على مقربة من لحروم(معجم البلدان والقبائل اليمنية:1131.

(2) -ا لعندل: الناقة والجمل

(3) - حديث صحيح رواه الشوكاني في نيل الاوطار

وأنا على كل حال، شاكر لذي القدرة والمحال، في بلد جديب، جد بين من خصب ومن أديب. في زمان المهذب فيه معذب، والصادق مكذب. والثابت عند أهله أعوج، والثبت عندهم أهوج، كما قال المعري :

غلب المين منذ كان على الخلق
وماتت بغيظها العلماء

أحببت السلام على السلطان الأجل، والشكية إليه ، وإلى الفقهاء والأدباء الساكنين لديه، بعد أن شكوت إلى علام الغيوب، شكية مكروب، مثل شكية يعقوب ،حين فقد من بنيه واحدا، فأصبح به واجدا ، فعمي من البكاء عليه جاهدا ،وكان غيره فيه زاهدا، حتى أتاه البشير بولده ، فزال عنه مالقي من بثه وكمده. فليت شعري! هل أرى بهذه الكتب بشيرا ، فيرتد بصير القلب ببشارته بصيرا، أم يكتب عليه العمى بنسيانها، ويتعين عليه الأسف دون عيانها. وقد مضت رحال الفقهاء - أيدهم الله - في طلبها سريعا ، فعسى الله ان ياتينى بهم جميعا. وقد بيع من هذه الكتب أربعة ، وبقي في ظل الكتمان سبعة: ثلاثة عند أبي حمادة ، والظن فيه حسن لما هو عليه من العادة. وكتاب عند إمام عندل، اذا خوطب فيه فكأنه يُرمى بالجندل، أو يحرق حريق عود المندل، الا أن العود يفوح بالطيب، ولاأدري مايفوح عن الإمام الخطيب. فإن وصل إلى بلد السلطان الأجل أحد من هذه الكتب بشيء، التي جعلت كالفيء، فهذه ترجمتها ليدل عليها ، والمسألة من إنعام السلطان الأجل، والفقهاء قبله الشفاعة فيها، وإن لم يصلهم منها شيء، فلهم الإنعام بالحث عنها لعلها تجلب الى ناحيتهم ، فيرجع منها شيىء ببركتهم.

وقد كان يجب (367) التخفيف عن حضرة السلطان، من كثرة هذا الهذر، تخفيف أبي عمرو [1] لما قرأ من النبر، إلا أنها نفثة مصدور، سبق بها المقدور. فليبسط العذر، وإن كان لاعذر إلابكرمه، وطيب أعراقه وحميد شيمه . والسلام على حضرة السلطان الأجل، وعلى جميع المسلمين قبله، ورحمة الله تعالى وبركاته .

(1) يعني أبي عمرو بن العلا المتوفي سنة 154هـ